أزمة الخطاب السوسيولوجي العربي

د. أبوحرارة محمد عبدالسلام
كلية الآداب/جامعة الزاوية

مقدمة:

إنَّ الخطاب السوسيولوجي العربي ومفاهيمه الموظَّفة في الخطاب العربي الحديث والمعاصر، هو خطاب مستقى إمَّا من الماضي العربي الإسلامي، أو من الفكر السوسيولوجي الغربي، حيث تدل تلك المفاهيم في كلتا الحالتين على واقع ليس هو الواقع العربي الراهن واقعاً مستنسخاً، إمَّا من صورة الماضي الممجَّد، أو من صورة الغرب المتحضِّر.

لهذا اتسم الخطاب الذي استند إلى تلك الخلفيات الفكرية بالعقم؛ لأنَّه يخاطب العاطفة ولم يخاطب العقل العربي، متأثر بالظروف المحيطة به الداخلية والخارجية، وسيطرة الخطاب الدولي عليه في تسارع العولمة في منظومات الإعلام والصحافة.

لذلك يجب أنْ يكون هدف علم الاجتماع يتجه بشكل أكبر نحو إفساح مكان للفرد وحركته وفعله في الصياغات السسيولوجية، فالحياة اليومية لها خطابها الخاص المبني على المعرفة والوعي، الذي بدوره يجعل الحياة اليومية قادرة على التنظيم، فهي وعاء لتخزين المعرفة والمعلومات حسب التكوين الجمعي للفرد أو الجماعة، أو انتمائها الفئوي أو الطبقي أو المهني، ونوعية هذا الوعي وطريقة ظهوره والشروط الملازمة له.

فالأفراد في حياتهم اليومية عندما يتحدثون أو يتبادلون وجهات النظر فأنَّهم يعبِّرون عن وجهة نظر معيَّنة، ومن خلال تفاعلهم فإنَّهم يكتبون خطابهم الخاص لهم وبذلك فهم يعبرون عن أنفسهم من خلال مضمون هذا الخطاب، إذاً فالحياة اليومية تأخذ معنى مختلف حيث الخطاب له بعده التاريخي الذي يحتوى على الجوانب العقلانية والانفعالية، وتتأثر الحياة اليومية في المجتمع العربي، الذي تتشكل فيه الطبقات المسيطرة الطرف الأقوى من توجهاتها الرأسمالية التي تجعلها لا تخضع لضوابط محلية فقط، بل تخضع لضوابط

عالمية أيضاً ضمن ثقافة تبدأ في مركز العالم الرأسمالي، وتزداد تعقيداته كلما اتجهت نحو الحياة اليومية للمجتمعات العربية، فهي عندما تنزل للمجتمعات العربية المحيطة تخلط بالأطراف النظامية والثقافية الداخلية، وتخلق شبكة معقَّدة من الضوابط[1].

كما ساعدت مرحلة الاستعمار في ظهور وتعدُّد أنواع الخطاب العربي الذي كان يدعو في تلك المرحلة للجهاد عن الأرض والعرض والدين، حيث لم تتبلور لغة الخطاب بعد، ومع ظهور الحركات الإصلاحية في مواجهة عوامل التخلف والتبعية السائدة في أرجاء الوطن العربي بدأت تظهر بعض الصحف والجمعيات والأصوات الفردية، يمثلها العديد من المفكرين في مختلف الاتجاهات الوطنية والقومية والدينية وكتابات المستشرقين عن الإسلام، وحركة بعض القبائل في الوطن العربي، وإجراء البحوث والدراسات على هذه القبائل والتجمعات السكانية.

ومع تصاعد حركات التحرير في الوطن العربي المطالبة برحيل الاستعمار، أصبحت لغة الخطاب السوسيولوجي تتبلور عند ظهور عدد من المفكرين، تناولوا القضايا العربية كل حسب التيار المتأثر به، فكان الخطاب يأخذ عدَّة مناحي بعضها ركز على الخطاب السلفي، والبعض الآخر على الخطاب القومي والخطاب المشترك الذي أخذ بالجانب القومي والديني معاً، باعتبار العرب يجمعون بين القومية العربية والدين كرسالة نزلت عليه في الجزيرة العربية، أمَّا الخطاب السياسي فقد ركز على قضايا تتمحور حول السلطة الحاكمة، وما اقترحته من قضايا وطنية أو قومية أو مشاريع تنموية داخل المجتمع، وكيف وجهت الخطاب إلى الأفراد والجماعات بقبول ودعم تلك القضايا ومراحل النجاح والإخفاق في كثير منها، لذا كان الخطاب السوسيولوجي كثيراً ما يخاطب العواطف ولا يتأسس لمرتكزات علمية يخاطب العقل ويبني فيها الإنسان، إضافة إلى هيمنة الخطاب العالمي بكل وسائله الإعلامية والمعلوماتية، وسيطرة الرأسمالية العالمية على هذا القطاع؛ ممَّا أضعف الخطاب العربي الذي لم يتجاوز الأيديولجيات المتصارعة، فجاء انعكاساً واضحاً للخطاب الرأسمالي العالمي.

وبناءً عليه تحاول هذه الورقة البحثية من خلال عرض استنباطي أنْ تقدِّم تحليلاً

سوسيولوجياً لتطور لغة الخطاب السوسيولوجي في المجتمعات العربية، وأزمة الخطاب في ضوء الأزمة الأيديولوجية التي تعاني منها المجتمعات العربية وفقاً للمحاور التالية:

- ماهية الخطاب السوسيولوجي.
- أزمة الخطاب السوسيولوجي العربي .
- الخطاب السوسيولوجي العربي وأزمة الأيديلوجيا .
- صور الخطاب السوسيولوجي العربي.

المحور الأول : ماهية الخطاب السوسيولوجي.

(1) ماهية الخطاب السوسيولوجي:

يعرف الخطاب بأنَّه الخطاب الذي يقوم على عملية توجيه الحديث، أو الكلام لشخص أو لمجموعة من الناس بغرض إيضاح فكرة معيَّنة، ويستخدم في مجالات مختلفة، منها الأدبية والعلمية والشعرية والفنية والسياسية، وفن الدعاية لمختلف عمليات التسويق والتجارة، ويتم تحليله بمناهج عديدة، وله أنواع عديدة كاللفظي وغير اللفظي.

الخطاب لغاً: بأنَّه مصدر للفصل، وقد جاء من كلمة الخطب أو المخاطب عظيم أو جلل.

أمَّا الخطاب اصطلاحاً فهو: مواجهة الآخرين بكلام قد يكون على شكل رسالة أو محاضرة أو تسجيل أو نص معيَّن، وقد يتعدَّى الكلام إلى رموز وتنوع أشكاله، فمنه اللفظي الذي يستخدم اللغة كأداة، وغير اللفظي الذي يستخدم العلامات والإشارات والإيحاءات، ويأتي هذا المصطلح مرادفاً لكلمات كثيرة، كالكلام في اللغة والرسالة والحديث والأطروحة والنص والسرد، ويعرِّفه البعض على أنَّها رسالة يقدمها مرسل، ويستقبلها متلقي.

أمَّا سوسيولوجياً فهو: منهج الحديث في المواد المشكَّلة من عناصر متميزة ومترابطة، سواء كانت لغة أو شيء شبيه باللغة، أو أي منطوق أو فعل كلامي يفترض وجود راوي ومستمع، وفي نية الراوي التأثير على المتلقي.

يهدف الخطاب السوسيولوجي إلى وصف التعابير اللغوية بشكل صريح، يعبِّر عن الوضع الاجتماعي بالإضافة إلى أنَّه يفكِّك شفرة النص الخطابي عن طريق التعرُّف على ما يحتويه النص، وتحليل الخطاب ومعرفة الرسائل المضمَّنة للنص الخطابي، ومعرفة مقاصده وأهدافه، ويتم تحليل الخطاب عن طريق الاستنباط

والتعلُّم بشكل منطقي حسب الظروف التي نشأ وكتب فيها النص الخطابي، ويعرف بتحليل السياق الذي يعتمد عليه النص.

أنواع الخطاب السوسيولوجي :

للخطاب السوسيولوجي أنواع أهمها:

الخطابات العقلية التي تقوم على الإقناع: وهي خطابات مستحسنة ومرغوب فيها، حيث تقوم على احترام القيم الإنسانية وتقديرها من خلال إعطاء فرصة للمتلقي؛ ليحكم على الأمور، ومن أمثلتها: (الخطابات الأدبية، والخطابات الشعرية، وخطابات المعالجة النفسية، وخطابات المحاضرات).

الخطابات العاطفية: وهي خطابات تستخدم طريقة سلبية تقوم على الخداع والحيلة، حيث لا تعطي المتلقي فرصة للحكم على الأمور من خلال تأثيرها على مشاعره، فيكون المرسل هو المتحدث وصاحب القرار في الوقت نفسه، ومن أمثلة ذلك: (الخطابات السياسية، الخطابات الدينية، الخطابات التجارية).

(3) عناصر الخطاب:

لكي يكون الخطاب مؤثراً يجب أنْ يكون متكامل الأطراف، ويقوم على عدَّة ركائز، أو عناصر تنظِّم الخطاب وتقيمه، وهذه العناصر هي:

المرسل: أي من يقوم بتوجيه الخطاب، وتكون لديه القدرة على التكلم والإبداع في ترتيب الكلام بشكل منظَّم ومترابط.

المتلقي: أي من سيوجه له الخطاب، ويتميز بامتلاك حاسة التوقُّع والانتظار أثناء الخطاب.

الرسالة: أي مادة الخطاب التي تساغ بصور لغوية متكاملة الجوانب الإبداعية والجمالية وقوة المعنى.

إذن للخطاب أنواع كثيرة ومتعدِّدة، نظراً لكثرة المواضيع التي تحتاج للخطب والإقناع، وبخاصة في العصر الحديث، فلا يمكن التأثير في الرأي العام بسهولة، كما كان من قبل، لذا تعدد أنواع الخطاب للتأثير في آراء الناس وقناعاتهم بشكل أكبر مع استخدام كل الوسائل الممكنة لذلك.

وسيلة الرسالة: قناة الوصل بين المؤلف والمتلقي عبر وسائل عدَّة منها: الكتاب، وسائل الإعلام على اختلافها مسموعاً أو مقروءاً، أو وسائل الانترنت.

(4) المناهج المستخدمة في تحليل لغة الخطاب السوسيولوجي:

يستخدم المحلِّلون مجموعة من المناهج في شرح وتفصيل أجزاء الخطاب وتأويلها وتفسيرها، وذلك من خلال تحليل الأسلوب المستخدم في النص، والعلاقات بين الكلمات واللغة، ومدى تأثيرها تذوقاً لتلك الكلمات.

يعتمد تحليل الخطاب على عدَّة مناهج، منها ما يعتمد على البنية، ويسمَّى البنيوي ويقوم هذا النص بتحليل ما بداخله، مهملاً حياة المخاطِب والظروف التي عاشها أثناء كتابته الخطاب، كذلك تحليل الرسائل اللغوية المستخدمة في النص والكشف عن مدى تأثيرها على المتلقي حيث تشكِّل قوة ضاغطة على رأيه واتجاهاته.

ومع تقدُّم العلوم والتقنية في مجالها الإنساني والتطبيقي، ظهرت أنواع متنوِّعة في الخطاب، فنجد الخطاب الديني، وهو الأقدم ويتمثَّل في الرسالات السماوية التي خاطب بها الله تعالى الإنسان عبر الرسل والأنبياء، وآخرها الإسلام (القرآن الكريم)، وتعد أفضل الخطابات على الإطلاق من حيث البلاغة اللغوية والإعجاز اللغوي، والإبداع في اللفظ والمعنى والتركيب، ومخاطبة عقل الإنسان ووجدانه، ويمتاز بالشمولية في مواضيعه لكل زمان ومكان، وكذلك الخطاب الإيصالي، وهو موجَّه من المرسل إلى المستقبل، ولهذا الخطاب أكثر من صورة، فمنه الخطاب السياسي والإرشادي والنهضوي والتعبوي بهدف تعبئة الرأي العام تجاه قضية ما(2).

المحور الثاني: أزمة الخطاب السوسيولوجي العربي.

إنَّ أزمة الخطاب العربي نابعة من الأزمة التي يعيشها المجتمع العربي بكل جوانبه وقضاياه، وهي إرث لفترات تاريخية طويلة من التخلُّف والاستعمار، وانعدام وسائل التعليم والصحة، وتجاوزه لا يتم إلا بتحقيق استقلال حقيقي، وانتشال الذات العربية من حالة العجز، يكون فيها الفكر العربي قادراً على الإبداع الذي يتسم بالجدية والأصالة.

إنَّ القراءة التي نقترحها هنا للخطاب العربي المعاصر قراءة ترمي إلى تشخيص عيوب الخطاب، وكشف للتناقضات التي يحملها الخطاب سواء كانت تلك التناقضات مجرَّد تعرضات أو جملة نقائض.

والذي يهمنا هو قدرة الخطاب المعاصر على استخدام لغة العقل في

إنتاجه للخطاب السوسيولوجي، وبخاصة مع تعدُّد أيديولوجيته، وعدم احتوائه المعرفة العلمية الموضوعية المفسِّرة لتلك الرؤى.

وعندما نتطرَّق إلى نماذج من صور الخطاب، فأنَّنا نركِّز على العقل العربي الذي أنتج تلك النماذج، ليس بوصفه شخص أو فئة أو جيل يمثل مرحلة تاريخية معيَّنة، بل هو نتاج العقل العربي على امتداد مراحله، ويمكن تحديد طرفان تحدِّد التصور العربي للنهضة في الخطاب: النموذج الأوروبي، والنموذج العربي الإسلامي.

يعاني الخطاب العربي من ظاهرة التضخُّم على مستوى الطموح في الخطاب النهضوي الحديث والمعاصر، هذا التضخُّم نجده لدى المتمسكين بالنموذج الإسلامي وحده دون غيره، على أنَّها بعث للإسلام من جديد "البعث الذي يتبعه على مسافة بعيدة أو قريبة تسلم قيادة البشرية"[3].

كذلك نجد لدى أقطاب الاتجاه القومي، الذين يجاوز في تصورهم للنهضة بين النموذج العربي والإسلامي بوصفه نموذجاً عربياً في الأساس، وعلى أنَّه انبعاث قومي بأداء رسالة إلى العالم أجمع، انطلاقاً من "أنَّ الأمة التي بعثت من قبل لتقود العالم وحدها للحق والعدل والسلام، ولابد لها أنْ تبعث من جديد في القرن العشرين برسالة مستمدة من حقيقة وجودها كأمة عربية"[4].

إنَّ الخطاب السلفي الذي ساد الخطاب العربي يطلب الحلول من الماضي، فمفهوم الشورى في الإسلام مثلاً ظل منذ البداية ملتبساً محل خلاف وتأويل إذا دققنا النظر في الحكومات الإسلامية من عهد الرسالة إلى نجد ترقيها وانحطاطها تابعين لقوة أو ضعف احتساب أهل الحق والعقل، وإشراكهم في تدبير الأمة، بل أنَّه عند "التدقيق في كل فروع الدول الإسلامية الماضية والحاضرة نجد الصراع والفساد دائرين مع سنة الاستشارة، أو الاستقلال في الرأي"[5].

ويتجه الخطاب السلفي إلى تعويض كل نقائض تواجهه إلى إصدار فتوى شرعية، حيث يجعل من الشرع مكمِّلاً لأحداث التاريخ ويسهم في صنعه.

ويذهب أصحاب الاتجاه الليبرالي إلى الأخذ بالنموذج الغربي للوصول إلى مجتمع ديمقراطي، ومعظم أصحاب هذا الاتجاه تأثروا بهذا النموذج خلال وجودهم في تلك المجتمعات الغربية، وانبهارهم

بمستوى التقدُّم الذي وصلت إليه، ويرفض الليبرالي العربي الدعوة السلفية التي تريد أنْ ترفع الشورى الإسلامية إلى مستوى الديمقراطية الأوروبية.

كما يرفض الفكر القومي الحل الاشتراكي المبني على الشيوعية، كما يرفض آليات النظام الرأسمالي، وأخذ طريق ثالث بين النموذجية باعتبار أنَّ النموذجين لا يصلحان للمجتمع العربي، وأخذ ما يناسب من النظام الرأسمالي، والنظام الاشتراكي للمجتمع العربي، حيث أخذ الخطاب عدَّة صيغ تتماشى مع تلك المرحلة، فكان خطاب موجَّه ضد الاستعمار والصهيونية في جزء منه، وخطاب يدفع بآليات التنمية باعتبار الوطن العربي جزء من العالم الثالث المتخلف اقتصادياً، ويعيش مرحلة التحرُّر ويعاني من سوء الخدمات الصحية والتعليمية والسكنية وغيرها، ونجح الخطاب في تلك المرحلة في رفع مستوى وعي الأفراد والجماعات في كثير من القضايا التي كان الخطاب موجَّهاً نحوها، إذ غلب على الخطاب الجانب العاطفي، وبخاصة في القضايا القومية والوطنية، فكانت النتائج سلبية ولم يرقَ الخطاب المؤسسي للدولة القطرية إلى مستوى القضايا التي تناولها ودافع عنها.

إنَّ تعدُّد أنواع الخطاب، وتأثر كل خطاب بأيديولوجية معيَّنة، أو رؤيا معيَّنة أو انحيازه لاتجاه دون آخر، أحدث تشويش في ذهن الأفراد المستقبلين لهذا الخطاب، وحول الفكرة التي تدور حولها، وحاولت بعض صيغ الخطاب التوافق بين هذه الأفكار والرؤى المطروحة.

فالخطاب النهضوي العربي المبشِّر بالنهضة (الثورة والأصالة والمعاصرة) خطاب توفيقي متناقض "وأنْ يكون أي خطاب توفيقي متناقض معناه خطاب غير مجدي، خطاب لا يحقق لهم ما يحلمون به من الأمن والاستقرار، ولا يجعل تطلُّعاتهم منسجمة وممكنة وواقعية، وأي خطاب محكوم باتجاه سلفي قديم معناه خطاب لا يرى الواقع كما هو، لا يعبِّر عنه ولا يعترف به، وبالتالي لا يرى المستقبل إلا من خلال ما يقيمه في ذهنه (للماضي) الذي يستكين إليه، وهو خطاب لا ينسجم مع الواقع المعاصر وتطوراته.

المحور الثالث : الخطاب السوسيولوجي العربي وأزمة الأيديولوجيا .

إنَّ مصطلح (الأيديولوجيا) لم يبدأ كمصطلح للتسمية، كما أنَّه في الاستعمال المتداول ينأى عن أية مضامين، أو تضمينات تقيد معنى التعويض والإدانة، فالمصطلح يعادل أو يقابل أية مجموعة مترابطة من المعتقدات السياسية المتسقة ذاتياً. ولكن ما حكمه كارلماركس على المصطلح من الاستعمال[6]، أذل مصطلح (الإيديولوجيا) على وعي زائف بالحقائق الاجتماعية والاقتصادية، ووهم أو ضلال جمعي يتقاسم الوقوع فيه أفراد طبقة اجتماعية معيَّنة، وهكذا لم يصبح المصطلح مصطلح إهانة وإدانة فحسب، بل مصطلحاً ضخمت فيه الإهانة بفعل نظرية منهجية، لم يقربها القرار بعد على مستقر فلسفي[7]، لذلك يقول لبيكا لا جديد يمكن قوله عن الأيديولوجيا بما أنَّه "ليس بالإمكان تقديم أي تعريف سجل في مجموعة لا تزال تتسع وتتزايد حتى الآن، لا أحد يستطيع في الوقت الحاضر أنْ يدَّعي أنَّها كاملة بحوزته، وأنَّ استعمال هذه الكلمة يقدر أحياناً استعمالها، فالكاتب يكتب (إيديولوجيا) وعلى القارئ أنْ يفعل الباقي[8].

غير أنَّ المهم هو الوصول إلى تعريف، ويحاول إيجاد الصلة بين علم الاجتماع والواقع العربي من جهة، وبين الإيديولوجية وعلم الاجتماع من جهة أخرى، كمعرفة وممارسة، ومن الفهم العام للأيديولوجيا على أساس رؤية للكون ذات أصول اجتماعية تاريخية، ونسق لأفكار محدَّدة بشروط مجتمعية من أهمها علاقات الإنتاج، التي تعبر عن مصالح معيَّنة، تؤثر في تفكير وشعور وأفعال البشر، وما يضاهيها من معايير وسلوك ومواقف وقيم[9] وأفكار الطبقة السائدة التي هي في الغالب أفكار المجتمع.

فالطبقة التي تملك السلطة المادية هي في الوقت نفسه تمتلك السلطة الروحية، فالأيديولوجيا مضموناً وشكلاً مشروطة بحساب واضعيها في مجتمع تاريخي محدَّد، وبالذات علاقة الملكية[10] إنَّ "الواقع الجزئي هو نقطة البداية للأيديولوجيا، ولأنَّها تبدأ من الواقع، فهي ليست زائفة، وحتى لو كانت تصورات مجرَّدة، فهي تدخل في صراع مع الواقع الجامع للعلاقات الاجتماعية القائمة[11]، وتفهم الأيديولوجيا باعتبارها "الوسيط الذي عبره يصنع البشر تاريخهم كممثلين واعين"،

فعندما يصبح البشر واعين لطبيعة النزاع بين قوى وعلاقات الإنتاج[12]، وأنَّ العلاقة بين الأيديولوجيا والواقع الاجتماعي هي انعكاس مرَّ لعلاقات الإنتاج أو للبناء الاجتماعي حسب ما شاع في التعريفات الكلاسيكية، حينها يمكن القول بالاستقلال النسبي للنشاط الفكري أو البناء الفوقي.

ولعل أول مرحلة مؤثرة في المصطلح بشكل قوي كانت مع كارل ماركس، الذي يعده البعض "هو الذي أعطى لكلمة أيديولوجية الأهمية التي تكسبها اليوم في كل ميادين البحث[13].

فقد استخدم ماركس الإيديولوجيا "في أغلب الأحيان كوصف، وهو يتحدث عن الأيديولوجية الألمانية، أو أيديولوجيا الجمهور، أو الموقف الأيديولوجي، أو الأيديولوجيا البرجوازية، ولكنه لم يحدِّد أو يقدِّم تعريفاً للأيديولوجيا[14]. فالأيديولوجيا بالنسبة له هي مكوِّنات بالبناء الفوقي"وهي: الوعاء الزائف الناتج من التكوين الطبقي للمجتمع والذي يؤدي إلى سر التناقضات الطبقية، وبالتالي يساعد على إمكانية استمرار وصنع الاستغلال.

إنَّ الأيديولوجيا في الفكر العربي المعاصر، مصطلح تعلَّق عليه كل مصائب وكوارث العالم العربي والإسلامي، والإخفاقات النهضوية، والهزائم الفكرية، وفشل النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية السائدة، أو التي سادت[15]، لذا أصبحت مشكلتنا الأساسية في الوطن العربي هي مشكلة إيديولوجية بشكل خاص، وكل إشكالاتنا تتفرَّع من هذه المشكلة في المقام الأول، فإشكالية الأصالة والمعاصرة، العروبة والإسلام، التراث والثورة، الاستقلال والتبعية، الدين والدولة، إلى غير ذلك من الإشكالات، ما هي إلا انعكاس وتجسيد للفراغ الإيديولوجي والثقافي الذي نجد أنفسنا فيه كأمة يفترض فيها وحدة الوعي كتعبير عن وحدتها وذاتها[16].

وبالتالي فالخطاب السسيولوجي ما هو إلا انعكاس للأيديولوجية السلطة، عندما يتحوَّل خطاب الأيديولوجيا خطاب سلطوي، وهذا ما يعبِّر عنه باري هندس عندما يقول الأيديولوجيا وخطاب السلطة عند لوك على الديمقراطية الليبرالية في ظل تصور شرعية السلطة إلى السلطة كحق، إلا أنَّها تفسر من خلال تصور هوبز للسلطة كقدرة على الفعل، أو تحقيق الأهداف. وفي الوقت نفسه كحق مطلق

للعاهل أو السلطة الحاكم ذات السيادة التي يمكن مقاومتها دون أنْ تسلب شرعيتها"[17].

فالخطاب السوسيولوجي للسلطة يعبِّر عن وجه أيديولوجي، وآخر خطابي حيث يتشكَّل الخطاب السلطوي وعناصره من خلال ما تضفيه السلطة في قوة على الخطاب الموجَّه، والمستند على أيديلوجيا معيَّنة، تحظى بالقبول الجمعي لدى أغلبية أفراد المجتمع، من خلال تناول قضايا مؤثرة تستهوي المجتمع، ويندفع وراءها الجميع لتحقيقها، مع استخدام كل الإمكانيات التي تسهم في تحقيق هذا الخطاب.

هذا ويختلف خطاب الحياة اليومي للأفراد باختلاف ميولهم ومستوياتهم التعليمية وطبقاتهم الاجتماعية، واهتماماتهم ومستوى دخولهم عن الخطاب السوسيولوجي بالرغم من تأثر هذا الخطاب بالخطاب اليومي للأفراد في كثير من الأحيان.

وكما يتأثر الخطاب الرسمي والمؤسسي بالخطاب اليومي للأفراد بالمجتمع، غير أنَّ ما يتوفر للخطاب السيسيولوجي الرسمي من مصادر قوة وإمكانيات الاتصال السريع، جعلته يتمتَّع بقدر من السيطرة والهيمنة، وفقاً لظروف الخطاب التي يتشكَّل من خلالها، ومع هيمنة الخطاب الرسمي على الخطاب اليومي بحكم الإمكانيات المتوفرة له، فالخطاب الرسمي يعد مكبَّلاً بما هو أقوى منه، وبما هو أوسع سيطرة وهيمنة، ألا وهو خطاب المجتمع الرأسمالي العالمي، تلك المنظومة التي تظهر بداخلها أشكال مختلفة للاحتواء والسيطرة، وهذه الأسباب التي أدَّت إلى ضعف الخطاب السيسيولوجي للنظام العربي بكل توجهاته، وأصبح خطاب السوق وعالم الاقتصاد والتجارة والعلوم والقوة العسكرية والإعلامية هو المسيطر على العالم اليوم.

إذن فالخطاب السوسيولوجي العربي هو خطاب سوسيولوجي متعدِّد الاتجاهات والأهداف، يمثِّل السلطة أنظمة الحكم ومؤسساته المختلفة والخطاب السوسيولوجي الشعبي الذي يمثل ما يتناوله الناس في حياتهم اليومية حسب انتمائهم الاجتماعي.

المحـــور الرابـــع : صـــور الخطـــاب السوسيولوجي العربي

تتعدَّد صور وأشكال الخطاب العربي، وفق سياقاته التاريخية والثقافية، وطبيعـة كل مرحلة من المراحل التـي مـرَّ بهـا، والعوامل التي تأثَّر بها الخطاب العربي.

أ- الخطاب القومي:

إنَّ ما يميز الخطاب القومي هو "التلازم الضروري" الذي يقيمـه بـين "الوحـدة" والاشتراكية" من جهة، وبينهما متلازمـين وبين تحرير فلسطين من جهة أخرى[18])، أو أنَّ الحديث يتضمَّن الشـمول لمجمـوع القضايا التي تهم الخطاب القومي اتصـالاً ببعض من الاشتراكية إلـى التقـدم إلـى الوحدة، وبالتالي ضمناً أو صراحة تطـرح قضية فلسطين، "إنَّ تجميع التجزئة العربية هو القانون الموضوعي لعصر الإمبريالية، أي القانون الموضوعي لعمل الإمبرياليـة في الوطن العربي"[19])، وبـذلك ظهـرت الدعوة إلـى الوحـدة العربيـة والقوميـة "فالقومية العربية ليست ميـداناً، وليسـت فكرة مدعوا لها، فالمبدأ والفكـرة أشـياء طارئة، يمكن أنْ توجد اليوم لتنتهي غـداً، وإنَّما القومية العربية، "وجود" قائم ليس لنا حيلة في الإبقاء عليـه أو إلغائـه، ونحـن حينما ندعو إلى القومية العربية فـنحن لا ندعو إلى الإيمان بفكرة، وإنَّما ندعو إلـى الوعي على "موجود" وعلى حقيقة غابـت عن الأذهان مـدة مـا بسـبب الانشـغال الخاطئ بالقضايا المحلية البحتة"[20]).

وقد ارتبط طرح الفكر القومي بقضـية الوحدة والاشتراكية في مراحلـه الأولـى، حيث "الشـيوعية انشـقت عـن الإطـار الاشتراكي" في أوربا بعد ظهور اللينينية " أمَّا الوضع في أمتنا فقد كان غيـر ذلـك تمامـاً، ففـي الـبلاد العربيـة ظهـرت الاشتراكية إمَّا انشقاقاً عن الشـيوعية، أو جواباً للتحدي الخيري الذي أوجدتـه"[21]، "إنَّ الإنسان العربي لا يجد ذاته، ولا تكمل إمكاناته إلا عن طريقة الوجـود القـومي الموحَّد، فهذا الوجود القومي شرط لوجود حضـارته، شـرط الوقـوف فـي وجـه أعدائه"[22]). لهذا لم يتمكَّن الخطاب القومي من تشييد نظرية قومية تفسر الواقع العربي تفسيراً علمياً، وترسم الطريقة إلى تغييره، نظرية تقدم البديل العلمي الممكن وتعمـل على تحقيقه.

فلم يتجاوز الخطاب القومي المقـولات العاطفية الوجدانية المرتبطة باللغة والتاريخ والمصير إلى المقولات العقليـة الواقعيـة

التي لها علاقة بالهياكل الاقتصادية، والصراع الاجتماعي والتنمية والسياسة الدولية[23].

إنَّ الساحة العربية وطنياً وقومياً لا تزال مهيأة ومترقبة لأعمال سوسيولوجية تقدم فيهما أكثر شمولية وعمقاً وانضباطاً للواقع الاجتماعي العربي المعاصر(24)، والواقع أنَّنا نتميز بخطابنا العربي المعاصر بين النهضة وإشكالياتها، وبين التنمية والتخطيط وقضاياهما، وفي اعتقادنا أنَّنا نفعل ذلك على أساس أنَّ إشكاليات النهضة هي إشكاليات فكرية، بينما أنَّ قضايا التنمية والتخطيط هي قضايا الواقع، قضايا الاقتصاد والاجتماع والتعبير... إلخ[25]، وبذلك فالخطاب القومي يحتاج إلى إعادة صياغة يتم خلالها استيعاب كل مكوِّنات الوطن العربي وتنميته نحو بناء مؤسسات معرفية و إنتاجية واقتصادية.

ب- الخطاب السلفي:

يذكر الخطاب السلفي حول سياسة الماضي حول "الخلافة" و"حقيقة الإسلام في أصول الحكم"، و"النظريات السياسية الإسلامية" و "نظام الحكم في الإسلام" وكل ما يتعلق بالسياسة في إطار الدولة الإسلامية، وبقوة العقل، ويدعو إلى الاحتكام إليه، والذي يرجع في اشتقاقه إلى "عقلنت البعير إذا جهت قوائمه"، وسمي العقل عقلاً لأنَّه يعقل صاحبه عن التورُّط في المهالك أي يحبه"[26].

والعقل الذي حدَّده الغزالي تحديداً صريحاً وواضحاً في وصفه "العقل الذي يدل على صدق الشيء ثم يعزل نفسه"[27]، وكذلك يتحدَّث عن رائد السلفية الحديثة "تحرير الفكر من قيد التفكير، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى تباينها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه، فالعقل الذي يصبح على هذا الوجه صديقاً للعلم، باعثاً على البحث في أسرار الكون، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتحويل إليها في أدب النفس وإصلاح العمل"[28].

فإذا كان المصلح السلفي قد فكَّر في الإصلاح والتحرير بعقل ينتمي إلى الماضي العربي الإسلامي، و يتحرَّك ضمن إشكاليته، فالليبرالي العربي قد بشَّر بالنهضة والتقدم بواسطة "مركَّبات ذهنية"[29] وفي الفكر الإسلامي الحديث بعض المفاهيم القلقة التي لم تعالج بكيفية

حاسمة رغم ما بذل من عطاء فكري، واجتهاد ثقافي على طول التاريخ الإسلامي الحديث، ومن هذه المفاهيم (المرأة، الاجتهاد الشرعي، الشورى، التراث والمعاصرة، العقل، السلطة، وكذلك مفهوم الديمقراطية[30]، فأنْ يكون الخطاب محكوماً بـ "سلف" معناه أنَّه خطاب لا يرى الواقع كما هو، ولا يعبِّر عنه ولا يعرف به، وبالتالي لا يرى المستقبل إلا من خلال التمثال "الذي يقيمه في ذهنه لـ "السلف" الذي يستكن إليه، بل يستسلم له، فهو إذن خطاب وعي مستلب[31].

ج- الخطاب السياسي:

"من الملاحظ في تاريخ الحركة العلمية عند المسلمين أنَّ حظ العلوم السياسية فيهم كان بالنسبة لغيرها من العلوم أسوأ حظاً، فلسنا نعرف لهم مؤلفات في السياسة، ولا في التراجم، ولا نعرف لهم بحثاً في شيء من أنظمة الحكم وأصول السياسة، اللهم إلا قليلاً لا يقام له وزن إزاء حركتهم العلمية في غير السياسة من الفنون"[32]، ويؤكد أحد الكتَّاب المعاصرين بأنَّه "بصورة عامة، في المدينة الإسلامية، كانت الإنسانية مفتقدة، والتعددية حداثة، والانفصال بين الشعب والسلطة قائمة. لذا كانت السياسة مجموعة الأمر الذي أدَّى مع مرور الزمن إلى تكوُّن روح الفروق لدى الشعب"[33]، و"لذلك كان المزج بين هاتين السلطتين المتلازمتين طبعاً، والمتضادتين في موضوعهما من شأنه أنْ يوقع خللاً بيِّناً وضرراً واضحاً في الأحكام والأديان حتى لا نبالغ إذا قلنا إنَّه يستحيل معه وجود التمدُّن وحياته ونموه"[34].

وفي إطار الصراع بين ما يدعو له الليبرالي العربي وما يدعو له السلفي حيث يقول: "ما تراه من حالة ظاهرة حسنة فينا، من حيث الرقي والأخذ بأسباب التمدن هو عين التقهقر والانحطاط، لأنَّنا على تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوروبية، وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب والاستكانة لهم، و الرضا بسلطانهم، وبذلك تتحوَّل صبغة الإسلام التي من شأنها رفع راية السلطة والغلبة إلى صبغة خمول وصنعة واستئناس لحكم أرضي"[35].

ولم يكن السلفي يستطيع التفكير في جامعة إسلامية بدون عروبة، ولم يكن الوالي العربي يفكِّر في دولة وطنية إقليمية، أو عربية قومية بدون الإسلام(36)، وينطلق الخطاب القومي لإعادة ترتيب العلاقة بين الهوية والإسلام

تاريخياً وقانونياً، إنَّ "الإسلام في حقيقته الصافية نشأ عن قلب العروبة، وأفصح عن عبقريتها حسن الإفصاح، يساير تاريخها وامتزج بها في أمجد أطواره، فلا يمكن أنْ يكون ثمَّة صدام(37).

الخاتمة:

يحاول الخطاب السوسيولوجي العربي بكل أبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية أنْ يقدِّم المعلومات بطريقة معيَّنة؛ لتحقيق أغراض معيَّنة، تتعلق بفرض سيطرة الدولة ومؤسساتها من خلال القضايا والبرامج المطروحة بخطاب يتجه الأفراد لتقديم معلومات أو أحداث حولها، بوجهة نظر معيَّنة وبأسلوب معيَّن ولغة معيَّنة، هدفه تحقيق البرنامج السياسي والاقتصادي والثقافي الأيديولوجي المطروحة من قبل الدولة، أي نهج السلطة الحاكمة وتوجهاتها الأيديولوجية.

لهذا نجد لغة الخطاب السوسيولوجي العربي تظهر من خلال مجموعة من الخصائص التي تتعلق بالآتي:

1- تعدُّد صور الخطاب العربي.

2- تأثر الخطاب السوسيولوجي العربي بالإرث الثقافي والدين والتاريخي للمجتمع العربي.

3-تأثر الخطاب السوسيولوجي العربي بالخطاب السلفي للمدارس السلفية المتعدِّدة.

4- خضوع الخطاب السوسيولوجي العربي للخطاب الليبرالي الرأسمالي العالمي.

5- تأثر الخطاب السوسيولوجي العربي بالخطاب القومي وحركات التحرُّر في الوطن العربي والقضية الفلسطينية.

6- تأثر الخطاب السوسيولوجي العربي بالخطاب السياسي بتوجهات السلطة الحاكمة وتأثير الأفراد والجماعات داخل كل دولة.

7- فشل الخطاب السوسيولوجي العربي في مخاطبة العقل العربي.

8- يغلب على الخطاب السوسيولوجي العربي الخطاب التعبوي المؤقت، الذي ينتهي بنهاية موضوع الخطاب.

9- انفصال الخطاب السوسيولوجي العربي عن محاكاة الواقع الاجتماعي بموضوعية علمية.

هوامش البحث ومراجعه:

(1) أحمد زايد، خطاب الحياة اليومية في المجتمع المصري، المكتبة الانجلو المصرية، 2003، ص76.

(2) أمير فرهانج، تحليل الخطاب الأبدي في فهم البلاغة، 2016/12/25.

(3) سيد قطب، معالم الطريق، دمشق، دار دمشق للنشر والطباعة والتوزيع، (د.ت)، ص10.

(4) منيف الرزاز، معالم الحياة العربية الجديدة، بيروت، دار العلم للملايين، 1956، ص14.

(5) عبد الرحمن الكواكبي، ذكره أديب نصور في الجامعة الأمريكية في بيروت، هيئة الدراسات العربية، الفكر العربي في مائة سنة، ص94.

(6) سعيد شبار، النخبة والأيديولوجيا والحداثة في الخطاب العربي المعاصر، مركز دراسات المعرفة والحضارة، طبعة ثانية، 2012.

(7) برايدوك دافيد، في دائرة معارف الفلسفة، سج 4 ص 124-127، نقلا عن أسامة عبد الحليم زكي، مفهوم الأيديولوجيا فلسفياً وسياسياً حين قدم الترجمة أنَّ البولية للمفهوم عند بر ايدوك، مجلة الفكر العربي، س 13، أبريل/يونيو، 1992، ص28.

(8) جورج لبيك "من أجل هو صرح من مفهوم الأيديولوجيا" في مجلة العالم الثالث، محرر السلطة، والأساطير، والأيديولوجيات، ترجمة كمال طور، في دمشق، وزارة الثقافة والإراديو الشهيق، 1980، ص37.

(9)HanfedBuhrndAlfedKosing, KleinsWokterbtichdermarxistisch, Leninistischenphilosophie (1974), p 138.

(10) المرجع السابق، ص 138.

(11) مراد وهبة "الأيديولوجيا والحضارة" قضايا عربى، السنة 8، العددان 11، 42، تشرين الثاني نونبر كانون الأول، ديسمبر 1985، ص10.

(12) جوران تريورن، إيديولوجية السلطة وسلطة الأيديولوجيا، ترجمة إلياس مرقص، بيروت، دار النهضة، 1982، ص18.

(13) العروي، مفهوم الأيديولوجيا، ص 29

(14) المرجع السابق نفسه، ص 131.

(15) سعيد شبار، مرجع سابق، ص56.

(16) تركي الحمد ، كراسات إيديولوجية في الحالة العربية، 1992، ص 81.

(17) باري هندس، ترجمة ميرفت يعقوب، خطابات السلطة من هوبز إلى فوكو، دار النشر للترجمة، 2005، ص33.

(18) محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة السادسة، 1999، ص107.

(19) إلياس مرقص، الأمة، المسألة القومية (بيروت: دار الحقيقة، 1971)، ص81.

(20) سيف الرزاز، دراسات في القومية، ص58.

(21) كلوفيسر مقصود، نحو اشتراكية عربية (بيروت: دار سنيمنة، 1957)، ص 58.

(22) عبد الله عبد الدائم، الوطن العربي والثورة (بيروت: دار الآداب، 1963)، ص 20.

(23) محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، مرجع سابق، ص145.

(24) سعد الدين إبراهيم، نكو علم اجتماع عربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثالثة، 2010، ص349.

(25) محمد عابد الجابري، الخط العربي المعاصر، مرجع سابق، ص 101

(26) مادة العقل، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور، لسان العزكبر، 2010، (بيروت، دار صادر ، 1956/1955).

(27) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، السطفي من علم الأصول (القاهرة: المطبعة الأميرية ، 1322هـ)، ج1، ص6.

(28) محمد عبيدة، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، بيروت، دار الكتاب العربي، (د.ت)، ص327.

(29) سلامة موسى، تربية سلامة موسي (القاهرة : مؤسسة الخانجي، 1958)، ص 101.

(30) زكي أحمد، الحركات الإسلامية الديمقراطية – دراسات في الفكر والممارسة، نشر البحث في المستقبل

العربـــي، الســـنة 15، العـــدد 154، أكتوبر 1902، ص64.

(31) محمد الجابري، الخطـــاب العربـــي المعاصر، مرجع سابق، ص 56.

(32) علي عبد الرزاق الإسلام وأصـــول الحكم، ط 3 (القاهرة : مطبعة مصر ، 1925) ص 22.

(33) ياســـــمين الحـــــافظ، الهزيمـــــة والإيديولوجية المهزومة، الإشارة إلى أمل، 2 (بيـــروت : دار الطليعـــة : (1974)، ص238.

(34) بطرس البناني، ذكرة أديب منصور في الجامعة الأمريكية في بيروت، من الدراسات العربية، الفكر العربي فـــي مائة سنة (بيروت الجامعـــة، 1967) ص 88.

(35) جمال الـــدين الأفغـــاني، الأعمـــال الكاملة بجمال الدين الأفغاني الحقيقـــة الكلية، تحقيق ودراسة محمد عمـــارة (القاهرة : المؤسسة المصرية العامـــة للتأليف والنشر، 1968)، ص327.

(36) محمد عابـــد الجـــابري، الخطـــاب العربي، مرجع سابق، ص75.

(37) مشيل عفلق، فـــي ســـبيل البعـــث، (بيـــروت: دار الطليعـــة، 1959)، ص26.